العنف السياسي في الدولة الموحدية وأثره في تحقيق وحدة المجال السياسي المغربي (541-667هـ/1126-1268م)

ط.د/كينة مليودة/ جامعة الوادي/ الجزائر

د/غانية البشير/ جامعة الوادي/ الجزائر

Babaabd99@yahoo.com

الملخص:

أهم ما ميز الدولة الموحدية (541-667هـ/1126-1268م) في مرحلة الثورة ، هو اتباع سياسة العنف التي مارستها ضد الرعية والقبائل والمخالفين لها، وتوحيد المغرب تحت سلطة سياسية واحدة . وسرعان ما اصطدمت بتشكك هادئ في أوساط بعض قبائل المصامدة ينذر بظهور موجة رفض لزعامة وإيديولوجية ابن تومرت، الشيء الذي دعاه إلى التحرك على جناح السرعة لمحاصرة هذه الموجة، وامتصاص غضبها. وتبعا لذلك، تحولت الدعوة الموحدية من التآلف إلى التوتر الداخلي. ومن بين الإجراءات التي أسست لمسار العنف الداخلي في الدائرة المصمودية ، هو الغدر بقبيلة هزميرة وأهل تينمل، وكذلك التصفيات المنظمة ، دون أن ننسى الفقه السياسي التومرتي، المبني على تشريع العنف والغزو، وتنظيمهما ومحاولة تسويقهما بأدلة شرعية مزعومة.

لقد تنوعت مظاهر العنف، واختلفت باختلاف الأسباب، سواء في عهد عبد المؤمن بن علي الكومي 1133-1163م، أو عند خلفائه فيما بعد . و السؤال الذي يطرح نفسه، هو: ما هي دواعي استعمال العنف لدى الدولة الموحدية ؟ وكيف كانت نتيجته ؟

abstract:

The most important feature of the Almohad state

(1268.1126)during the revolution was to follow its policy of violence against the parish, tribes and violators, and to unite Morocco under one political authority. Soon, he was confronted by a quiet skepticism among some of the tribes that threatened the emergence of a wave of rejection of Ben Tomert's leadership and ideology, which prompted him to act swiftly to block this wave and absorb its anger. Accordingly, the Almohad call of harmony has shifted to internal tension. Among the measures established for the internal violence in the Masmid district is treachery against the tribe of Hzimira and the people of Tinmel, as well as organized liquidation, without forgetting the Tumarti political doctrine based on the legislation of violence and invasion, organizing and attempting to market them with legitimate evidence.

The manifestations of violence varied, and differed according to different reasons, whether during the reign of Abd al-Mu'minibn Ali al-Kumi 1133-1163, or later successors. The question that arises is: What is the reason for the use of violence in the Almohad state?

مقدمة:

عندما نتأمل تاريخ المغرب، نلاحظ أن تحقيق وحدة المجال السياسي للمغرب الإسلامي لم يظهر إلا في عهد الدولة الموحدية. كما أن ظاهرة العنف كانت سائدة في مختلف مراحل الدولة. وتجلت بكل وضوح في انعكاساتها المتنوعة على الاقتصاد والمجتمع والعمران والعقليات، وقد ظهر هذا العنف في الأقوال والأفعال، وسواء على مستوى الجماعة أو الأفراد. ومن هذا المنطلق، يحق لنا طرح السؤال التالي: فيم تجسد العنف السياسي في الدولة الموحدية ؟ وكيف كان أثره على مستوى الوحدة المغربية ؟ وقبل الإجابة عن ذلك، يتوجب علينا طرح الأسئلة الفرعية التالية: ما طبيعة العنف لدى الدولة الموحدية ؟ وفيم تبرز سياسة ابن تومرت والخلفاء الموحدين عند إرساء دعائم الدولة، وتحقيق وحدة المجال السياسي ؟ وما أثر هذه السياسة في الوحدة المحققة ؟

أولا: تحديد المفهوم الاصطلاحي للعنف :

لقد تعددت الآراء حول تحديد مفهوم العنف، وتباينت النظريات فيما بينها في إرجاع هذا السلوك إلى عوامل ومصادر مختلفة...

ولعل من أجمل تعريفات العنف هو أي فعل لفظي أو بدني موجه إلى شخص، ويتسبب عنه أذى جسدي أو نفسي أو حرمان. ويكون الغرض منه تحطيم المكانة الاجتماعية للشخص [1]. فالعنف فعل مضاد، موجه نحو شخص أو شيء ما، ينطوي على رغبة في التفوق على الآخرين. ويظهر إما في الإيذاء أو الاستخفاف أو السخرية [2] . وعليه، فالعنف سلوك يعبر عنه بأي ردة فعل تهدف إلى إيقاع الأذى بالذات أو بالطرف الآخر، وتخريب ممتلكاته أو ممتلكات غيره [3] . وهو ظاهرة حركية لها جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، تعرفها كل المجتمعات البشرية بدرجات متفاوتة . [4]، 2 . العنف السياسي :

يقصد به كل عنف يتضمن اختراقا حقيقيا أو محتملا لبعض الحقوق السياسية للأفراد، أو عندما يتصل بتحقيق أهداف سياسية. وتتجه معظم تعريفات العنف السياسي إلى أنه استخدام القوة المادية أو التهديد باستخدامها لتحقيق أهداف سياسية.

وتتخذ ظاهرة العنف السياسي أشكالا متعددة منها: الحرب، والتطهير العرقي، والممارسات القمعية لأجهزة الدولة، والتعذيب، والانتهاكات... الخ. كما تعددت الأطراف التي تمارس العنف، فهناك عنف تمارسه الحكومات والأنظمة تجاه المواطنين والجماعات(الرعية مصطلح عصور وسطى)، وهناك عنف غير رسمي تمارسه الجماعات والأفراد(الرعية) تجاه الحكومات (الدولة). **[5]. ثانيا:**

عنف الموحدين بين الثورة والدولة:

1. المهدي بن تومرت والثورة الموحدية:

استطاعت الدعوة الموحدية في ظرف أربع سنوات، أن تصل إلى تشيد أركان بناء هيكلي لحركة تنشد التغيير عن طريق استعمال القوة، بعد أن تمكن ابن تومرت من حصوله على بيعة المصامدة بالمهدية سنة 515هـ/1121م. ولكن تطورات الدعوة والحركة الموحدية سرعان ما اصطدمتا بتشكك هادئ في أوساط بعض قبائل المصامدة، ينذر بظهور موجة رفض لزعامة وإيديولوجية ابن تومرت، الشيء الذي دعاه إلى التحرك على جناح السرعة لمحاصرة هذه الموجة وامتصاص غضبها، فانتقلت الدعوة الموحدية بذلك من التآلف إلى التخالف الداخلي [6].

١. العنف الداخلي (الغدر بقبيلة هزميرة وأهل تينمل):

ومن بين الإجراءات التي أسست لمسار العنف الداخلي في الدائرة المصمودية، ما رواه مفصلا المؤرخ الموحدي ابن القطان عن المؤرخ الأندلسي اليسع بن أبي اليسع، الذي أشار إلى بعث أهل مدينة تينمل رسلهم إلى الإمام المهدي، وإكرامهم له وإنزاله في مدينتهم. وكان أبناء قبيلة هزميرة يحضرون وهم يمسكون الأسلحة، وكان جواسيسه قد أفادوه بأن ولاء قبيلة هزميرة أو بعضها مشكوك فيه. وذكرت الروايات الموحدية أن الإمام المهدي خاف من جهتهم لكثرتهم ومنعتهم، وكوشف من حالهم بما اقتضى له تدقيق النظر في أمرهم). وكان تخوف ابن تومرت من انقلاب هزميرة وتينمل سببا قويا لتدبير مؤامرة للقضاء عليهما، فأراد تجريد أبنائها الذين يحضرون وعظة

من أسلحتهم. وبذلك بدئت خيوط المؤامرة تنسج بدهاء، فوصلوا في بعض الأيام إلى الوعظ دون عدة، فما شعروا إلا وأصحابهم الموحدون أعزهم الله تعالى ومعهم العدة قد أحاطوا بهم، فقتل منهم في ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألفا، وقتل من ذلك القبيل كل من حضر في ذلك اليوم بتينمل" . ولم يكتف المهدي بذلك ، بل أراد تصفية القبيلة نهائيا، فطبق على أهلها أحكام الكفار، مما أدى إلى سبي حرمهم، وغنمت أموالهم، وقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين من أصحابه.... كان الغدر بقبيلة هزميرة تينمل سنة 518هـ/1124م بعد ثلاث سنوات من بيعة المهدية، مما بظهر بكل جلاء أن الأمر لم يستتب لابن تومرت كما كان يريد ، لذلك قام بهذا الإجراء الدموي لتصفية جزء من حركة المعارضة الداخلية الصامتة، للحيلولة دون انتشار تأثيرها في باقي القبائل[7]. وقد أثار هذا العنف غير المبرر استنكار واحد من أهل العشيرة، وهو الفقيه الأفريقي، لكن المهدي لم يكن مستعدا لسماع صوت ينبهه إلى تجاوزاته، فأمر به فقتل وصلبت جثته. وبرر الموحدون اغتيال الفقيه الإفريقي بأنه شك في عصمة الإمام المهدي" وبالتالي فقتله مبرر، ذلك أن العصمة في الفكر التومرتي لم تكن تعني فقط عدم الوقوع في الخطأ، بل تعني أيضا تبرير جميع تصرفات ابن تومرت، باعتباره مهديا ولو كانت جرائمه وانحرافاته بمعزل عن الدين وتقاليد القبيلة [8].

. ب . التميز أو التصفيات المنظمة ":

ويعنى بها تطهير صفوف الموحدين. فدبر عملية تصفية جماعية أخرى كانت أوسع من الأولى، تحت غطاء مصطلح موحدي عرف باسم التميز[9]. وقد استغلت مناسبة التميز هذه للقيام بعمليات تطهيرية بتينمل، كان بطلها أبا محمد عبد الله الونشريسي، الملقب بالبشير، حين استدعى المهدي القبائل ليميزها سنة 519 هـ/1125م استعدادا لمواجهة المرابطين، فكانت تمر بين يديه، وفي نفس الوقت كان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى يميز الخبيث من الطيب. وكان لا يخرج عن اليسار إلا من كان شاكا في أن الإمام هو المهدي المعلوم[10].

لا شك أن تلك العملية قد تمت في ذلك الوقت بالذات، خوفا من أي انقلاب للمعارضين ضد الموحدين أثناء المعركة التي كانوا يحضرون لها لإرهاب القبائل المترددة. فالعملية لم تمس فقط الرافضين للتومرتية، بل حتى المشكوك في أمرهم. ودام التميز أربعين يوما قتلت خلالها خمس قبائل بأكملها حسب البيذق، إضافة إلى عدد من الأشخاص من مختلف القبائل [11].

ج . تشريع الغزو عند ابن تومرت:

كان الفقه السياسي التومرتي مبنيا على تشريع العنف والغزو وتنظيمهما، ومحاولة تسويقهما بأدلة شرعية مزعومة. كما كان موقفه النظري واضحا تماما بشأن المجتمع المرابطي. فقد اعتبر أهله مجسمين، وسوى بين قتال أهل التجسيم الملثمين والبرابرة المفسدين والمكارين الملبسين من الطلبة. وذهب إلى الحسم في مال هؤلاء قائلا:" فمن قتل من المجسمين والمفسدين فهو في النار، ومن قتل من الموحدين فهو شهيد[12].

كما استباح دم كل من شك في شيء مما ادعاه لنفسه، حتى من بين أتباعه ومناصريه. ومع مرور الوقت، أصبح لدى الموحدين اقتناع بأفضليتهم على غيرهم، انطلاقا من موقف للمهدي مفاده " أن أهل الجماعة وصبيانهم عبيدهم". وقد طبق الموحدون هذا النص بحرفيته بعد وفاة المهدي بأكثر من خمس عشرة سنة، وذلك عندما قتل محمد بن أبي بكر بن يجيت من أهل الجماعة، إبراهيم أخا عبد المؤمن بن علي، الذي كان حديث الالتحاق بالموحدين. فعندما عزم عبد المؤمن على الاقتصاص لدم أخيه من القاتل، واجهه أشياخ الموحدين بهذا النص، فتراجع مقتنعا أو مستسلما للأمر الواقع [13].

2. السلطة الموحدية والعنف :

أما في عهد **عبد المؤمن بن علي الكومي 1133–1163م**، فتنوعت مظاهر العنف واختلفت باختلاف الأسباب. وتذكر المصادر التاريخية أن عبد المؤمن حاصر مدينة تلمسان ودخل البلد، ولم يشعر أهلها إلا والسيف يأخذهم. فقتل الكثير وسبيت الذرية والحريم، ونهب من الأموال

ما لا يحصى، ومن الجواهر مالا تعد قيمته. ومن لم يقتل، بيع بأبخس الأثمان. وكان عدد القتلى مائة ألف قتيل [14]، مما يجعلنا نشك فيه، وتبدو لنا المبالغة واضحة جلية. وزحف من مدينة تلمسان إلى وهران، ففاجأ لمتونة بعسكره فقهرهم ونجا تاشفين، فلجأ إلى رابطة هناك، واختفى فيها حتى الليل ثم خرج منها [15]. والجدير بالذكر أن الموحدين قتلوا جيشا من أتباع تاشفين، بلغ عددهم ثلاثمائة رجل إلا سبعة منهم . [16]. أما تاشفين فاقتحم البحر حتى هلك. ويقال أنهم أخرجوه من البحر وصلبوه، ثم أحرقوه، والله أعلم بحرقه [17] ولما قتل، وصل خبره إلى تلمسان، فخرج من كان بها من أعيانهم للقاء أبي محمد عبد المؤمن، وكانوا نحو ستين رجلا، فقدر عليهم أن لقيهم عند وادي تافنة فأفناهم فيه، وقتلهم عن آخرهم. وقد كان عبد السلام وزيرا له في مراكش، ونظرا لظلمه وجوره على أهلها، سجنه هذا الأخير، وطلب من السجان قتله في تلمسان. فعمل له ثريدة مسموسة، وعندما أكلها، مات"[18].

ولما شعر عبد المؤمن بزوال حكمه، اضطر لإخضاع الثوار عليه في المغرب، ومزق صفوف معارضيه كل ممزق[19].

ومما هو جدير بملاحظته، أن كثرة السبي والنهب قد كثرت في عهد عبد المؤمن [20].

أما الخليفة الموحدي **أبو يعقوب المنصور:1184–1199م**، فحدث له اصطدام مع بني غانية في حروب عديدة، وقتل الكثيرين منهم. وقام المنصور يضرب عنق الأشل وصاحبه السيد أبي زكريا، واحتمل رأسه إلى بجاية، فعلق على بابها مع ذراعيه. ولعل أكثر ما عانى منه المنصور هم بنو غانية[21].

إذ قدم ابن غانية المتوفى سنة 1184م إلى بجاية [22].

وعاث فيها فسادا وفي ذواتها... وتوغل في بلاد الجريد، وعاث فيها فسادا، وسفك الدماء، وأخذ الأموال وأباح الحريم [23].

وحتى والي مدينة تلمسان، السيد أبو عمران، عانى من الأمر نفسه، وهزم عسكره، واستشهد، وأسر بعض بنيه والكاتب أبو الحسن ابن العياش، وبعض طلبة تلمسان، وما لحق بالعرب من بني هلال

قتلا وأسرا. أما أحد أعمام المنصور الذي كان يطغى في آرائه، ويدافع عنها بحجج سخيفة، فأخرج على وجهه، ومشى على قدميه إلى منزله، والعامة تطأ أثوابه، ولم يلبث الأسير أن توفي [24].

ثالثا: نتائج العنف الموحدي(تحقيق وحدة المجال السياسي المغربي):

1. سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين :

لعبت شخصية ابن تومرت دورا كبيرا على مسرح الأحداث لجذب أكبر عدد ممكن من الأتباع، وذلك نتيجة لرحلته وتنقلاته في العالم الإسلامي. واستغل ذكاءه وعلمه في نشر دعوته الدينية التي كانت تناهض مبادئ المرابطين. واستخدم كل الوسائل الممكنة، بما فيها سياسة العنف التي اتبعها، ثم تلك القيادة العسكرية القادرة المتمثلة في عبد المؤمن بن علي وسياسته المستمدة من سياسة ابن تومرت. وقد قدمنا أمثلة على العنف المسلط من قبل عبد المؤمن في تثبيت سياسة ابن تومرت، وإخضاع القبائل لسلطته.

2. توحيد المغرب " السيطرة على افريقية":

بعدما سيطر عبد المؤمن على مقاليد الأمور في العاصمة مراكش، وأحكم قبضته على المغرب الأقصى، نراه يوجه اهتمامه إلى الشرق، حيث خرجت الجيوش الموحدية في حملات متتابعة ناحية الشرق، حتى وصلت إلى طرابلس المجاورة لإفريقية، محققة انتصارات عسكرية متتالية. وبذلك نجح الموحدون في تحقيق وحدة سياسية للمغرب الإسلامي تسير شؤونها من عاصمة الخلافة مراكش، بعد أن ترك وراءه دولة مترامية الأطراف، تمتد من طرابلس الغرب، إلى المحيط الأطلسي؛ ومن السوس الأقصى جنوبا إلى أكثر جزيرة الأندلس شمالا.

3 توحيد المغرب " السيطرة على إفريقية":

شرع عبد المؤمن في دفع النصارى عن مدن الأندلس سنة 556هـ/1160م، إلا أن مرض الخليفة حال دون إتمام الحملة، فتوفي سنة 558هـ/1152م [25] . وقد تولى خلفا له ابنه يوسف بن عبد المؤمن، وبويع برباط الفتح عام 558هـ/1162. ثم وجه الخليفة الجديد جل اهتمامه لدعم السلطة السياسية للموحدين في الأندلس، وقد استنفذ منه ذلك كثيرا من الجهد والوقت. حيث وجدناه قد أرسل الجنود في حملات متتابعة إلى الأندلس، ثم ترأس بنفسه إحدى هذه الحملات سنة 567هـ/1171م على رواية المراكشي، متوجها للأندلس لضبط الثغور وإصلاح الأحوال، حتى إذا عاد إلى المغرب، أخذ يستعد من جديد لغزوة كبرى سنة 579هـ/ 1173م، إلا أن هذه الغزوة لم يكتب لها النجاح بسبب إصابة الخليفة إصابة قاتلة، فخلفه المنصور الموحدي الذي برزت جهوده في الأندلس، وتوج ذلك بالانتصار الحاسم في معركة الأرك عام 591هـ/1194م. وقد وطدت هذه المعركة من سلطة الموحدين بالأندلس، وأوقفت زحف النصارى، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم في الشمال الإفريقي. والأهم من هذا كله هو اتساع المجال السياسي لدولة الموحدين. ونجحوا في إخضاع العدوتين المغربية والأندلسية اللتين صارت تسير شؤونهما من عاصمة الخلافة مراكش [26].

الخاتمة:

وفي نافلة القول، يمكننا الجزم أن الدولة الموحدية هي السلطة الوحيدة التي حققت الوحدة المغاربية في العصر الوسيط من المحيط الأطلسي غربا، حتى برقة على الحدود المصرية شرقا، إضافة إلى بلاد الأندلس شمالا. غير أنها سلكت في توسيع رقعتها الجغرافية سياسة تعسفية مطلقة، أحكمت قبضتها على دواليب الحكم بيد من حديد. كما اتبعت كل وسائل الترهيب والعنف الأعمى الذي تجلى في نشر دعوة ابن تومرت. واقتفى أثره بكل صرامة جميع الخلفاء الموحدين من بعده. وهو ما لا يستسيغه جل المؤرخين المعاصرين الذين دونوا أحداث هذه الفترة الخطيرة من تاريخ المغرب الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

[1] خالد بن سعود ، العنف الأسري أسبابه وأثره وعلاجه، مدار الوطن لنشر ،1430. 2009، الرياض، ص ص 8. 9.

[2] زكرياء الشربيني: المشكلات النفسية عند الأطفال، القاهرة: دار الفكر العربي، 2001، ص73.

[3] أحمد يحي خوله : الاضطرابات السلوكية والانفعالية، عمان: دار الفكر، 2000، ص185.

[4] إبراهيم مفيدة محمد: أزمة التربية في الوطن العربي، عمان: دار مجدلاوي، ص98.

[5] عبد الفتاح ماضي، العنف والتحول الديمقراطي في مصر بعد الثورة " سلسلة الوعي الحضاري 2"، دار البشير للثقافة والنشر،1435.2015، مصر، ص14.

[6] محمد المغراوي ، الموحدون وأزمات المجتمع ،جذور النشر، الرباط، 2006،ص 17.

[7] [1] ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 139.

[8]محمد المغراوي، المرجع السابق، ص 18-19..

[9] التميز:يعني في التنظيم الموحدي العرض العسكري للقبائل استعدادا للمعركة، وتعيين المسؤولين عنها، وتوزيع الأولوية وغير ذلك من الأمور. وكان يتم على أساس تنظيم القبائل حسب ولائها وتاريخ التحاقها بالدعوة الموحدية، وحسب الأسهم التي تستحقها في الغنائم. ومن حين لآخر يتم استدراك بعض الشخصيات ذات الحضور المتميز أو القبائل، فتلحق برتب معينة في السلم الهرمي الموحدي. وللمزيد ينظر: البيذق، المقتبس من كتاب الأنساب، ص 35. 36.

[10] البيذق ابو بكر بن علي الصنهاجي،اخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر عبد الوهاب بن منصور، دار منصور، الرباط، 1971، أخبار المهدي، ص58.

[12] ابن تومرت، الرسالة المنظمة ضمن أعز ما يطلب ، تحقيق عمار الطالبي، الجزائر، 1985، ص262.

[13] محمد المغراوي ، المرجع السابق،ص ص 20-.21.

[14] ابن الأثير: علي بن محمد الشيباني الجزري الموصلي)ت1405/808م)الكامل في التاريخ،ج9، بيروت، دار صادر1967م، ص203م.

[15] [1] أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المعروف بالزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضور، ط2، تونس: المكتبة العتيقة، 1966م، ص8.

[16] ابن عذارى: مصدر سابق، قسم الموحدين، ص21

[17] عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص اخبار المغرب،تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهر، مطبعة الاستقامة،1949م، ص271.

[18] ابن عذارى احمد بن محمد المراكشي،البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب(القسم الثاني خاص بالموحدين) تح: جماعة من الأساتذة، الدار البيضاء، دار الثقافة، بيروت، دار الغرب الاسلامي،1985.

[19] عبد الرؤوف الفقي: مرجع سابق، ص260.

[20] ابن الأثير: مصدر سابق، ج9، ص373

[21] بنو غانية: ينسبهم المؤرخون إلى أمهم غانية من العائلة المرابطية الحاكمة. امتلكوا جزر البليار شرق الأندلس واستقلوا بها. ثم أنكروا ولاءهم للموحدين، فغزوا بجاية ومليانة وقلعة بني حماد وقسنطينة. انظر عبد الواحد المراكشي: مصدر سابق، ص189.

[22] عمار مساهل: الآفات في المغرب الإسلامي –دراسة من خلال نوازل الونشريسي ما بين القرن6-9هـ/12-15م ، مذكرة تخرج مكملة لنيل شهادة الليسانس في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة المسيلة، 2009م/2010م، ص43.

[23]

[24] ابن عذارى: مصدر سابق، ص198، 252. **[25]** **إن عدد الأوروبيين عام 1921 اعتمد على تقدير وتخمين المسؤولين.**

[25] المراكشي، المصدر السابق، 230.

[26] -ابن الخطيب، لسان الدين، أعمال الأعلام،القسم الثاني، تح: بروفنسال.